

مراجعة كتاب/ KITAP İNCELEMESİ/ BOOK REVIEW

«ليبيا التي رأيت، ليبيا التي أرى»

* المنصف وناس

الدار المتوسطة للنشر، تونس، 2018

بقلم: دروش فاطمة فضيلة

يسعى الباحث المثقف بكل ما أوتي من قوة أن يكتب كتابا يخلده ، وبالنسبة لعالم الاجتماع فكتاب حياته لا يمكن أن يخرج عن إطار رؤيته للتغير الاجتماعي ، للفاعلين الاجتماعيين ، لمقومات التنمية الشاملة ولطبيعة الصراع الاجتماعي. ولا يمكن أن يكون هذا العمل إلا بحثا مقارنا نقديا تحليليا ، يضع فيه عصارة تلاقيه وتفاعله مع النظريات السوسولوجية من جهة والواقع الاجتماعي الذي يعيشه كالأخرين ولكن لم يكن ليراه بنفس العدسة، وهذا ما سعى لتحقيقه الأوائل من علماء الاجتماع منذ أوجست كومت وماكس فيبر وكذا فعل ابن خلدون وهو يكتب مقدمته الشهيرة قبل التأسيس الأكاديمي لسوسولوجيا . وهكذا ظهر لنا العالم والباحث الاجتماعي التونسي المنصف وناس في آخر كتبه. إنه العمل المميز والرائد في الحقل السوسولوجي المغاربي منذ مطلع الألفية والمعنون «ليبيا التي رأيت ليبيا التي أرى»**.

*المنصف وناس باحث في جامعة تونس مهتم بمتابعة التطور الاجتماعي والسياسي في مجتمعات المغرب العربي وخاصة في ليبيا ، في رصيده ستة عشر كتابا من بينها : . العسكر والنخب في ليبيا (2009) ، . الشخصية الليبية (2014).
** المنصف وناس ، ليبيا التي رأيت ليبيا التي أرى ،الدار المتوسطة للنشر، ط1، تونس 2018 .

١ إشكالية الدراسة:

أسفرت عملية بناء إشكالية البحث عن تساؤلين رئيسيين : ما هي جذور الأزمة والإخفاق والعنف في المجتمع الليبي؟ وهل يمتلك المجتمع الليبي موارد تاريخية واجتماعية وسياسية واقتصادية وقيمة كافية لإعادة البناء ومغادرة حالة الإخفاق؟ صياغة التساؤلين لم تتأتى من العدم بل سبقتها دراسات استطلاعية وقراءات عديدة ومقابلات مع مختلف الشرائح الاجتماعية مكنت الباحث من تحقيق القطيعة مع المعرفة السابقة والمعتقدات العامة حول مستوى المعيشة وطبيعة العلاقات ومختلف البنى الاجتماعية في ليبيا. فبينما كنا نعتقد أن سكان ليبيا كانوا ينعمون بحياة الرفاهية جراء تقسيم مداخيل النفط ولكون نسبة السكان قليلة لا تتعدى السبعة ملايين وإذ بالدراسات الاستكشافية التي أجراها الدكتور المنصف وناس تسقط ما كنا نعتقد حقيقة وتكشف لنا عن حلة الفقر التي كانت شرائح عريضة تعاني منها» فالفقر رسالة متبادلة بين النظام والليبيين، فكلما زرت بنغازي . وقد زرتها ما لا يقل عن عشر مرات ،أدق النظر في مظاهر الإهمال والتسيب الإداري وعلامات الفقر والقذارة وانحيار المرافق الخدمانية وعدم تجديد معالم المدينة العتيقة اشعر بان مثل هذه الحالة رسالة رمزية وسياسية مركبة وعميقة في الآن نفسه ، ولكنها واضحة في مدلولاتها بالنسبة إلى الباحث والمتلقي على حد سواء». (المؤلف، ص45)

بالإضافة إلى التشخيص الأولي لأهم مظاهر التخلف التي ميزت ليبيا في عهد معمر القذافي وذكر أهم المشكلات الاجتماعية للمجتمع الليبي تضمن هذا التصريح رسائل رمزية لعل أهمها أن الفقر محسوب ومفتعل بمعنى آخر هو فقير متعمد لمناطق بعينها وهذا يجزنا إلى منبع الداء وحاقن قابلية الانفجار المتمثل في ظاهرة الشروخ

والانشطارات العديدة في المجتمع الليبي « أزمة المجتمع الليبي العميقة ليست تعبيراً عن صراع فقط بين السلطة والمجتمع وإنما هي تأكيد لتعاقد عصرين بنويين: جغرافية الأحقاد بين الفئات والجهات والقبائل من جهة والانشطارات الثقافية الاجتماعية والنفسية من جهة أخرى». (المؤلف، ص 48) وربط الباحث جغرافية الأحقاد بالانتشار المذهل للسلاح بكل أصنافه بغرض الاحتماء من كل هذه الشروخ. وبعد سلسلة من المقابلات أجراها مباشرة لاحظ شعور النخبة العميق بالانغلاق السياسي وانتشار الفساد والعجز عن مقاومته وعدم القدرة على إصلاح البلد. كما أشار الباحث إلى ظاهرة شعور الشباب بالإقصاء مع أنه لم يذكر أي مؤشرات دالة على الإقصاء. بالإضافة إلى عامل يستهان به في البلدان العربية وهو غياب المراجعة العميقة والعلمية للتغيرات الاجتماعية ومدى مسيرتها للتطور الحاصل في العالم. بعد هذه القراءة النقدية نلخص عوامل الإخفاق والأزمة ومن ثم انفجار فيفري 2011 إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية .

. العوامل الداخلية :

. عوامل بنوية ثقافية نفسية مرتبطة بالتكوين القبلي وقابليته للدخول في نزاعات وحروب عند الإحساس بالخطر .
. عوامل اقتصادية تكمن في فشل تحقيق التنمية الشاملة والعدالة الاجتماعية وما أضر عن هذا العجز من انتشار الفقر بشكل واسع أو بالأحرى تفكير متعمد لبعض الجماعات ومنه شعور عميق ومؤلم بالقهر المادي والنفسي جراء تراكم الثروات لدى جماعات النفوذ وعدم تكافؤ في الفرص الاقتصادية والاجتماعية و اشتداد أزمة الطبقة الوسطى اقتصادياً.
. عوامل سياسية تكمن في شعور النخبة بالانغلاق السياسي و شعور الشباب بالإقصاء وعبادة القائد الحاكم للسلطة.
. انعدام المراجعة العميقة خلال أربعين سنة وضعف الخبرة في التسيير الاستراتيجي للأزمات.
. العوامل الخارجية:

. تكالب حلف الشمال الأطلسي على ليبيا .

. التوجه الرئيسي لقوى غربية لاستئصال النظام السياسي القائم مهما كانت التكلفة المادية والبشرية.

. إغراق ليبيا بالأسلحة بكل أنواعها من طرف قوى أوروبية وممولة عربياً. (المؤلف، ص 62)

من بين هذه العوامل المحددة المتسببة بالإخفاق والانفجار والتأزم أيهما يرجح الباحث؟ الإجابة عن تساؤلنا تكمن في الفقرة التالية وهي ذات دلالة ومفسرة لما يحدث وقد يحدث في المغرب العربي «بعد جلسات حوار أربعة، توصلت إلى استنتاج أنه لا توجد رغبة حقيقية في السلم في ليبيا، تأكدت من كل ذلك حينما هاتفني دبلوماسي أوروبي في الأسبوع الثاني من شهر ماي ١١٠٢ قائلاً: إننا لم نستمع البتة لنصائحك فالمؤسف أن الملف انتقل من أيدي Alain Jupe وصار بين أيدي الفيلسوف اليميني Bernard Henry Lévy صدمتي المعلومة أية صدمة لأنني مواكب لمسيرته منذ عقود». (المؤلف ص ٣٦)

وعليه فالعامل الحاسم المالك لليبيا هو التأمير الخارجي ولكن لم يكن هذا الفيروس قادراً على التغلغل وهاكك النسيج الاجتماعي لولا قابلية هذا النسيج لاستقبال الفيروسات . إنها شروخ وتفككات عميقة متأتية أساساً من أن المجتمع غير محصن من الداخل بما فيه الكفاية ويتميز بمشاشة وانكسارية حليتين تؤثران بالضرورة في أدائه .

ثانياً ، سوسيولوجية التعتيل والإهدار ، حالة ليبيا: كيف فسر المنصف وناس علمياً نشاط العوامل السابقة الذكر ومسارات إحداث الانفجار والانفلات الأمني؟

أ . نظرية المجتمع المعطل: توصل المؤلف عند إعادة تركيب الخلايا المالكة للمجتمع الليبي إلى إنتاج مقارنة نظرية مركبة تم صياغة مقولاتها بالرجوع إلى التاريخ السياسي والاجتماعي وبالاستناد إلى الملاحظات العينية والإحصائيات والأحداث الظاهرة والكامنة ولقد أطلق عليها نظرية المجتمع المعطل» والمتسمة بعناصر رئيسية متعاضدة ومتداخلة إلى حد كبير. (المؤلف، ص 6968)

. غياب العقد الاجتماعي والأخلاقي .

. غياب سياسة توافقية تبني على المشاركة الجماعية.

. بنية سياسية مشحصنة ومركزة في يد واحدة تعزل القوى المجتمعية والسياسية والاقتصادية عن المشاركة.

. قرار سياسي استفرادي وغير تشاركي وغامض المبررات.

. توزيع ضعيف للثروات الوطنية وأحباسها في الفئات الموالية ومنع توزيعها ودورها العادلين.

. تعطيل مسيرة تحديث المجتمع سياسيا ومؤسساتيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا والزاه بما يمكن أن نسمة البدونة بكل تجلياتها

وممارساتها وتمثالاتها للحياة والوجود.

. الاعتماد الكلي على الاقتصاد السياسي للبتروول في تعميق التعطيل .

ب ،الاهدارات التاريخية للعسكر:أهم مفارقة سوسولوجية وسياسية توصل إليها المؤلف تكمن في كون العسكريين لم يسعوا عمليا إلى إيجاد شركاء سياسيين في صلب المجتمع الليبي«فلو حكم العسكر في ليبيا بمجدي ووفق برنامج تحديثي توافقي لأمكن عندئذ بناء مجتمع منضبط و مؤطر ومنتهج ولكن الذين حكموا بعد 1969 لم يكونوا متحانسين فكريا وطبقيا واجتماعيا ولا أصحاب مشروع تحديثي حقيقي للمجتمع الليبيلقد كان بإمكان العسكر أن يكونوا فاعلا تحديثيا مهما وقاطرة تطوير مجتمعي واقتصادي وتنموي أساسي وأداة داخية وصاهرة للمجتمع القبلي صلب المجتمع الشامل».(ص 119).

كما توصل المؤلف إلى كون العسكريون في ليبيا بلا قاعدة شعبية وكان حضورهم فوقيا مما أدى بهم إلى استخدام القوة في إدارة الشأن العام لإخفاء مكامن التوتر والتفكك. وأن أغلب أعضاء مجلس الثورة كانوا يعتنقون مرجعية عروبية ناصرية وكانوا يأملون إقامة العدالة الاجتماعية وتعميم التعليم وتوفير الخدمات الصحية وتشجيع المرأة على المشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية ولكنهم قبلوا طوعا أو إكراهها الحكم الفردي وتواطؤا مع ظاهرة الفساد وقبلوا الإقصاء والتهميش. (المؤلف ،ص 123).

ثالثا، شروط إعادة البناء في المجتمع الليبي أو المستقبل الممكن:

كيف يمكن تحويل الزلزال المجتمعي الذي عرفته ليبيا إلى رأسمال ثقافي واجتماعي إيجابي يساعد على إعادة البناء والى قوة طاردة للضعف والوهن؟ كيف يمكن تحويل كل عناصر المشاشة والانكسارية التي تجمعت بعد 2011 إلى موارد تحصيل ومناعة وقوة أي كيف يمكن إعادة بناء البيت الليبي من جديد؟

اجتهد الباحث في رسم خريطة طريق جديدة باعثة للأمل والتفاؤل جوهرها أن التغيير الصائب يبدأ من السياسة التربوية والتعليمية و السياسة الثقافية والسياسة الدينية المخاطبة للعقل الليبي ثم السياسة التنموية العادلة.إنها الرؤية الغيبورية والتي أثبتت نجاعتها في كثير من المجتمعات المعاصرة والتي خططت خطوات إيجابية نحو المستقبل .

كما تستلزم مرحلة إعادة البناء في نظر المؤلف القطيعة الايجابية العميقة والمؤسسية لواقع مجتمعي جديد،ولا يمكن إعادة التأسيس إلا بعد تشخيص موضوعي لأماكن الإخفاق والمشاشة.ونختم هذه المراجعة بقاعدة سوسولوجية عبر عنها مؤلف الكتاب تعبيرا يستحق أن يعلق شعارا في كل مؤسسات الدولة «فالمجتمعات تنتج ذاتها إنتاجا وتبني نفسها لبنة لبنة وحجرا حجرا وتكون هي في المستوى الذي يراد لها أن تكون فيه،وهي إنتاج إرادة الفاعلين الحريصين على التقدم. فالمجتمعات لا تولد مكتملة وجاهرة ، لا تنشأ مكتملة بذاتها، وإنما هي تتطور وفق من يريد لها أن تتطور سلبا أو إيجابا، وهي ترتقي إلى المنزلة التي يريد الفاعلون أن تنبواها مثلما كان الشأن في المجتمعات الغربية على خصوصية مساراتها التاريخية للوصول إلى ذلك».(المؤلف، ص365)